

أسرى الخوف: الليبرالية والإبادة

عمر العقاد

في يوم ما، سيكون الجميع قد ادعى دائماً أنه كان ضد هذا

إدنبرة: كنوف وكانونغيت للكتب، 2025

208 صفحات (بالإنجليزية)

قراءة: رنا بركات ، فلسطين

لقد غيّرت غزة العالم، ويمكن لأيّ منّا أن يكون واثقاً من هذه الحقيقة، لكن المحاسبة والاستيعاب حيال هذا التغيير قد تتخذ أشكالاً عديدة. ففي العام 2023 دخل قرنٌ طويل من الاستعمار الاستيطاني لفلسطين مرحلةً متسارعة إلى نهايته عبر الامتلاء بالدم والرعب. إن هذا الانحدار للإمبراطورية الأورو-أمريكية ستكون له أصداء عالمية، ومن المأمول أن يقول الناس يوماً ما إنه من شواطئ غزة كانت العوالم القديمة تحتضر، وكانت عوالم جديدة، كما قال أنطونيو غرامشي مرّةً، تكافح كي تولد. في كتاب **في يوم ما، سيكون الجميع قد ادعى دائماً أنه كان ضدّ هذا**¹ يقدم عمر العقاد محاولة مطوّلة لفهم هذه المحاسبة والاستيعاب تبعاً لهذا التغيير.

يتميّز طرح العقاد في هذا الكتاب الفريد بطابعٍ شاعري في بعض الأحيان، وهو بخطّ متّصل، كذلك، مشبع بالألم والكآبة. لقد كتّب هذا العمل خلال الأشهر الأولى من أحداث حرب إبادةٍ على غزة، وفيه يكتب العقاد من خلال، وغالباً عن، مواجهته الشخصية مع حياته الخاصة والمهنيّة في عالمٍ يمكن أهوال الإبادة الجماعية ويسمح بها، بل ويبدو أحياناً وكأنه يحتفي بها. وكغيره ممن لم يشيخوا بنظرهم عن مشاهد الرعب، كثيراً ما يجد العقاد نفسه في حالة ذهول وعجز عن الكلام، متسائلاً بصراحة: لماذا وكيف يستطيع هذا العدد الكبير من الناس وحكوماتهم التظاهر بأن ما يحصل في غزة ليس في الحقيقة حدثاً يجري بالفعل؟ وفي نواحٍ كثيرة، يُعدّ هذا الكتاب كتابةً تحاول الاستمرار على الرغم من فقدان الكلمات. ويوضح العقاد، تحت وطأة الصمت والتضليل الذي يهيمن على العالم الذي يعيش فيه، أن: "مشاهدة وصف معاناة الفلسطينيين، في كثير من وسائل الإعلام الغربية السائدة، هي مشاهدة للغة تُستخدم من أجل عكس الغاية التي وُجدت من أجلها اللغة أصلاً، إنها مشاهدة لتفكيك المعنى ذاته" (54). ويبدو أن قول أيّ شيء قد يستدعي العداء، فيما يظلّ الخوف هو الشعور الطاغي الذي يتجلّى في صورة صمتٍ وسّل.

إن صعود الإمبراطوريات وسقوطها يُعدّ تقليدياً من عمل المؤرخين، لكن غزة وفلسطين جعلتا بعض المؤرخين بلوذون بالصمت، وصمتهم مدوّ في هذه الحالة. ربما أربكهم هذا السقوط الإمبراطوري تحديداً، وما يصاحبه من

تدميرٍ للعالم الذي أتاح صعوده، أو ربما كانوا خائفين أكثر مما ينبغي من تسجيل هذا السقوط. وهكذا تحلّ ضوضاء حروب الحضارات محلّ أيّ نداءٍ للعدالة أو الإنسانية. وفي هذا السياق، يقول العقّاد، وهو يحثُّ قُرّاءه على مواجهة الإفلات من العقاب وعدم إدارة الظهر لما يحدث: "انسوا الشفقة، وانسوا حتى الموتى إن اضطرتهم، لكن على الأقل حاربوا سرقة أرواحكم" (64). وبالنسبة للعقّاد، فإنّ الواجب الأخلاقي واضح، لأنّ "الإحساس الطاعني بأننا قد فشلنا، جماعياً، وأنّ هناك عنفاً في الطريقة التي اخترنا أن نعيش بها، حاضرٌ هنا، كما ينبغي أن يكون، كما يجب أن يكون دائماً" (53). وتبعاً للكاتب، يبدو أن توثيق الدمار في غزة ووضعه في سياقه يعني أيضاً التأمّل فيما يمكن أن يأتي "بعد غزة".

يقدم هذا الكتاب في جوهره، رحلة العقّاد بوصفها مريثةً للموت البطيء الليبرالية، فقراءة العقّاد هي قراءة عبر تناقضات انهيار الليبرالية. إن العالم الذي يصفه العقّاد يكتنفه الخوف والاعتلال العام اللذان يؤججان نيران الإبادة الجماعية، كما تكتنفه ستائر الدخان التي توفر لها غطاءً رقيقاً وتدفع بزخمها إلى الأمام. وفي خلفية ملاحظاته ووصفه ومحاولاته للفهم، نجد مقاطع متفرّقة من مواجهة العقّاد، أو على الأقل تأملاته، في القسوة التي تمكّن الإبادة الجماعية والسياسات التي تنتجها. وعندما تُنسج هذه المقاطع معاً، فإنّها تُفضي إلى أملٍ ما: أنه سيأتي يومٌ يقف فيه الناس ضدّ هذا، حتى لو لم يكونوا كذلك عندما كان ذلك ضرورياً، كما يقول العقّاد. ولكن يبقى السؤال: هل سيحدث ذلك فرقا؟

على امتداد عشرة فصول قصيرة، يدعو العقّاد القارئ إلى الدخول إلى عالم أفكاره، وكأنه يكتب إلى صديق، ينتقل ذهاباً وإياباً بين تجاربه الشخصية وتأمّلاته في ماضيه، في محاولةٍ لوضع الحاضر الإباضي هذا في إطارٍ مفهوم. فبصفته شاباً مصرياً، يفتح العقّاد أمام قارئه مشاهد من شبابه حين كانت أسرته الصغيرة تعيش في أنحاء مختلفة من العالم بينما كان والده يبحث عن سبل عيشٍ كريمة. فبعد مصر، عاشوا في قطر، حيث بدأ العقّاد، وهو في سن المراهقة، يفتح عينيه البريئتين على سياسات المنفى الاقتصادي التي قادت عائلته في نهاية المطاف إلى كندا. وبصفته ابن مهاجرين سعيًا إلى ملاذٍ في الغرب، فقد واجه عنصرية من عالم كان ينظر إلى الأجساد المسلمة/ العربية بعين الرّيبة، ويعدّها مذنبه حتى تثبت براءتها، إن كان مثل هذا الإثبات ممكناً أصلاً. وفي رحلته الحياتية، من المدرسة إلى عمله كصحفي متردّد أو ملتبس، يبدو أنه يتتبع المسار السياسي واللا-إنساني واللا-أخلاقي الذي قاد في النهاية إلى الرعب الأقصى في حقول القتل في غزة. ولا شك أن العقّاد واضح في تأكيده أن هذا لم يبدأ في غزة في العام 2023، حتى وهو يعود مراراً وتكراراً إلى السؤال: عندما ينتهي كل هذا، مع إصراره على أنه سينتهي يوماً ما، من سنكون حينها؟

يأخذ العقّاد القارئ في رحلة شخصية تتخلّلها، بشكل يسير ولكن مهم، خلفية سياسية تتمثّل في مشاهد من غزة ممزوجة بمشاهد من الحروب التي لا تنتهي في القرن الحادي والعشرين في أفغانستان والعراق وما خلفته من آثار مستمرة. إن حرمان الإنسان من الحياة خارج البيت والوطن يظلّ حاضرًا في نصّ العقّاد، ويكشف عن الحزن

العميق الكامن في عنف الاستعمار، وربما هذا يفسّر لماذا، حتى وهو يكتب عن الإبادة الجماعية، يكتب أيضاً عن نفسه وعن المنفى. إن الحقيقة الخام لعجزه عن التكيف مع إبادة جماعية تُبثُّ على الهواء مباشرة، وهي أهوال تفوق الكلمات، تتسرّب بألم عبر سطور النصّ، وتعبّر إلى حدّ ما عن الأغلبية الصامتة وربما تنطق بالنيابة عنها، تلك الأغلبية التي قد تشعر بالعجز في خضمّ هذا الرعب. أو ربما يوجّه العقّاد عمله على أمل أن تكون هناك أغلبية صامتة فعلاً، وهو ما يطرح الإشكالية المستمرة في هذا الكتاب: لمن يكتب؟ بدلاً من السؤال عمّن يكتب إليه. فهو يتساءل: "ما الذي أنت مستعدّ للتخلّي عنه لتخفيف معاناة شخص آخر؟... كيف يمكنك أن تأمل أن يتغيّر أيّ شيء إذا لم تشارك في العمل من أجل تغييره؟ كيف يمكن أن يكون لك أيّ موقف أخلاقي إذا كنت سريع التخلّي عن الأمل؟" (116). ولعلّ هذه الأسئلة، وإن بدت بلاغية، وبالتأكيد وجودية، تبدو أقلّ تعلقاً بالناس الواقعيين تحت قنابل الإبادة، وأكثر تعلقاً بكلّ من يلتزم الصمت التزاماً بـ"معايير الطبيعية الغربية" (114).

إن السؤال الكامن في العنوان غير المؤلف للكتاب يكشف عن حزن الكاتب بقدر ما يكشف، وعلى نحو غريب، عن أمله في بقاء قيمة ما للإنسانية. وكما في عدّة محاولات حديثة للكتابة عن إبادة غزة بوصفها حدثاً يغيّر العالم، يمكن مقارنة عمل العقّاد بكتابين بارزين فيما يمكن أن نسميه أدب "ما بعد غزة"، وهما: كتاب حميد دباشي، **ما بعد التوحّش: غزة والإبادة وأوهام الحضارة الغربية** (2025)

Hamid Dabashi, *After Savagery: Gaza, Genocide and the Illusion of Western Civilization*

وكتاب بانكاج ميشرا، **العالم بعد غزة: تاريخ** (2025)

Pankaj Mishra, *The World After Gaza: A History*.

وعلى الرغم من أن كتابي دباشي وميشرا يختلف كثيراً الواحد عن الآخر، وكذلك عن عمل العقّاد موضوع هذه القراءة، إلا أن الخيط اللات الذي يجمع هذه الكتب الثلاثة هو التأمل في "الحضارة الغربية". يرى دباشي أن غزة، شعباً ومكاناً، هي التي كسرت مرايا هذه الكذبة التاريخية المسماة بـ"الحضارة"، وهي فكرة صاغها مفكرون أوروبيون ثم أمريكيون لتكون مجرد غطاء للمشروعات الاستعمارية الحديثة. وتختلف هذه الأطروحة عن مقاربة ميشرا المشابهة، إذ يحاول دباشي، على الأقل، أن يضع بعض الأصوات الفلسطينية في المركز، وأن يقدم تاريخاً عالمياً تُفهم فيه فلسطين وبعض الفلسطينيين بوصفهم جزءاً فاعلاً منه. وعلى الرغم من اختلاف النبرة والسياق وكذلك الرهانات، فإن كلا من دباشي وميشرا يواجهان احتكار السياقات الأوروبية-الأمريكية مفاهيم المعاناة والإنسانية وإمكانات الرحمة. أما العقّاد، فيضع كتابته ضمن موقعه الخاص، غريباً عن "الغرب" لكنه مقيم فيه. وعلى خلاف تلك الكتب، فإن سرد العقّاد أكثر ذاتيةً وألماً، بوصفه رحلة عربيّ مصريّ تنقل مع أسرته عبر العالم بحثاً عن حياة كريمة. وتحضر أصداء أعمال الطيّب صالح في إحساس العقّاد بالاغتراب عن العالم الذي يعيش فيه، كما عن العالم الذي تركه خلفه. ومع أن الكتب الثلاثة ترتبط بخيوط "الغرب والحضارة الغربية"، إلا أن انشغال العقّاد يختلف كثيراً عن كلّ من دباشي وميشرا، إذ إن أسلوبه يحتفظ بإحساس الصدمة من أن تقوم القيامة "الحضارية/

نهاية العالم" في العام 2023 على شواطئ غزة في فلسطين. وهو، شأنه شأن كثيرين غيره، يحاول التفكير في العالم بعد غزة، وهو هاجسٌ في "الغرب"، لكن العقّاد يستطيع على الأقل أن يصفه بالعبيثي: "إنه لأمرٌ مبارك أن تواصل تسجيل فظائع يومية، وأن تكتب قبح كل يوم كما يحدث" (123).

إذا كان الدمار وآلة القتل الصهيونية قد أسقطا قناع الادّعاء بالقيمة الثابتة لليبرالية، ذلك النظام القائم أساساً على تقديم المصلحة الذاتية فوق كل ميلٍ أخلاقي أو إنساني آخر، فإن العقّاد هنا يسجّل موت هذا النظام ويتأملُ تشريحه. غير أنّ هذا التحليل لا يبدأ في غزة، ولا حتى في فلسطين، لأن الرعب هو نتيجة الإرهاب. وكما يوضح العقّاد فإن الممارسة التي سادت في عهدَي بوش وأوباما، والمتمثلة في تصنيف أيّ رجل تقريباً يقتله الجيش الأمريكي على أنه إرهابي حتى يثبت العكس، هي واحدة من أكثر السياسات خبثاً التي خرجت من سنوات ما بعد 11 أيلول/ سبتمبر، وذلك لسبب وجيه. فهي تنتهك حرمة الموتى مرتين" (54). وفي هذه المعادلة، يبدو أن "الغرب" قد انفجر من خلال انهياره الداخلي. إنّ نهاية العالم القيامية التي تديرها الوحوش أمرٌ لا مفرّ منه: "سيأتي يوم ينتهي فيه كل هذا. إما بالتحزُّر، أو بالسلام، أو بالإبادة على نطاقٍ واسع إلى درجة تعيد ضبط مسار التاريخ" (124). وهذا "اليوم"، الذي يتحدث عنه العقّاد، هو لحظة ما قبل الكشف الحاسمة: "إن كل هذا القتل لم يكن نتيجة إساءة استخدام نظامٍ ما، بل نتيجة نظام يعمل تماماً كما صُمّم له أن يعمل" (124). وهو على يقينٍ من أنه سيأتي يوم "لن يعود فيه هناك مجال لإشاحة النظر بعيداً" (125).

وبينما يبلغ العقّاد عتبة الكشف، يبدو أنه لا يستطيع عبورها بالكامل، فهو يظنّ على يقينٍ من أن "يوماً ما" سيأتي لتحاسّب فيه بعض الأطراف، ولو بصورة سطحية، ويزعم فيه الناس أنهم كانوا دائماً ضدّ ما حدث. غير أنّ ذلك اليوم"، الذي يتصوّره العقّاد، يبدو قائماً على استمرار النظام العالمي الليبرالي نفسه الذي أفضى أصلاً إلى حقول القتل. وعلى الرغم من أنه قدّم بأسلوبٍ شاعري تشريحاً لهذا النظام العالمي، فإنّه لا يبدو قادراً على تقديم التقرير الختامي المُدين له، وهنا يكمن الفخّ. فهو يقول "إن الأشخاص الذين أثبتوا قدرتهم على ارتكاب أبشع ما يمكن للبشر أن يفعلوه ببعضهم قد يُمنحون حصانة أخيرة، لأن البديل، ما هو؟" (126). إن السؤال الذي يطرحه هو في الحقيقة تصريح. والسؤال الذي لا يولد من الخوف بل من الأمل هو: ماذا يقَدّم هذا العالم القاسي للبشرية حقاً لكي يستمر؟ وهل أصبحت المصلحة الفردانية مهيمنة إلى درجة أنّ الناس لا يجروون حتى على التفكير فيما يتجاوزها؟

إنّ النسخة الأحدث من الإبادة الجماعية في فلسطين، على الرغم من استثنائيتها في عنفها المتواصل ونزعة الانتقام لدى آلة الحرب الصهيونية، هي جزء من تاريخ طويل ومن بني هائلة من العنف الاستعماري والإمبريالي عبر العالم. ومع تساقط المطر السام على طهران وبيروت، ندرك أنّ غزة لن تنتهي في غزة، وأنّ الإبادة ليست جديدة، وأنّ فلسطين ليست استثناءً. لقد اجتاحت "حقول القتل" أنحاء العالم لقرون، وما تزال مستمرة. وخلال قصة حياته الخاصة، يتتبع العقّاد، ويأخذنا معه، تجلّيات هذا العالم الوحشي في صورهِ المعاصرة المختلفة، لكنه لا يستطيع أن يتخيّل مغادرته تماماً. وعلى الرغم من أنّه يثني على مجرّد فكرة الانسحاب من النظام العالمي

الذي أنتج الفظائع وبزرها بل واحتفى بها بوصفها ضرورة، فإنَّ الخوف من المجهول يظلُّ حاضراً. فهو يكتب: "إنَّ الابتعاد عن هذا النظام هو أن تتحدَّث باللغة الوحيدة التي سيفهمها هذا النظام يوماً ما... إنَّ الابتعاد ليس عدميةً، وليس تشاؤماً، وليس فعل لا شيء، بل هو شكل من أشكال الانخراط أكثر صدقاً وأكثر تعزيزاً للروح مما كان النظام مستعداً لتقديمه في أيِّ وقت" (118-121).

يقودنا العقَّاد نحو تلك العتبة، ويراها أمامه، ويثني عليها بالكلمات، لكنَّه لا يستطيع أن يستحضرها بالكامل في الجسد أو الروح. ويتركنا مع السؤال التالي: ماذا يعني حقاً أن "تمشي بعيداً"؟ فلا وجود لـ "ما بعد غزة"، كما لا وجود لـ "ما قبل غزة"، هناك عالم نتحمَّله على الرغم من قسوته. لا يشيخ العقَّاد بنظره، بل يراقب ليكتب، حتى عندما تخونه اللغة، لكن السؤال يبقى: لمن ولماذا نكتب؟ يمكننا أن نتخيل بجرأة إعادة المعنى إلى الكلمات والمسؤولية إلى السياسة، والأمل إلى البقاء، لكن لفعل ذلك يجب علينا عبور عتبة المجهول. فالابتعاد عن شيء ما يعني أيضاً السير نحوه، وما يمنعنا هو الخوف

الإحالات

[1] تمَّت هذه المراجعة على الكتاب بنسخته الإنجليزية:

Omar El Akkad, *One Day, Everyone Will Have Always Been Against This* (Edinburgh: Knof/Cannongate Books, Ltd, 2025).

"تل أبيب": بين الزجاج الحضري والندبة الاستعمارية

ماعوز عزرياهو

أسيرة صورتها: موجز تاريخها وملامح شخصيتها لدولة تل أبيب

"تل أبيب"، دار "لامدا" بالتعاون مع معهد بن غوريون، 2021

238 صفحة (بالعبرية)

قراءة: سليمان التيهي، فلسطين

ثمّة كتب تقرأها فلا تفارقك بعدها، لا لأنها قدّمت إجابات، بل لأنها غيرت الأسئلة التي تطرحها على نفسك. "أسيرة صورتها" لماعوز عزرياهو واحدٌ من هذه الكتب، فهو لا يكتب "تل أبيب" بوصفها مدينةً يمكن وصفها وتوثيق شوارعها وأحيائها، بل يكتبها بوصفها جهازاً رمزياً يعمل على إنتاج معنى الدولة، ويُعيد رسم حدود الانتماء، ويمنح الشرعية لما يبدو في الظاهر مجرد عمران وأسماء وخرائط. لا تبدو المدينة هنا خلفيّة محايدة للأحداث، بل تقنية سلطة من الطراز الأول: تُعرّف من ينتمي ومن يُقصى، ما يُرى وما يُمحي، وما الذي يُسمح له بالتداول كـ"حقيقة" عن المكان.

يبدأ عزرياهو من وصف بسيط: "تل أبيب" "مدينة ضخمة، لكنّها في الوقت ذاته مدينة عشوائية". يبدو ذلك في الوهلة الأولى ملاحظةً عمرانية عابرة، لكنه يفتح بها ثغرةً تحليلية لا تُسدُّ حتى الصفحة الأخيرة. فالعشوائية، كما يُصرّ الكتاب، ليست نقيضاً للتخطيط، بل شكل من أشكال التنظيم عبر السوق: يُعاد توزيع الانتباه والتمويل والشرعية لا وفق الحاجات العامة، بل وفق قوانين الجاذبية التسويقية. هذا التمييز الدقيق بين التخطيط والتسويق هو ما يجعل الكتاب مثيراً للاهتمام منذ صفحاته الأولى، إذ يطرح تساؤلاً لا تُريحك إجابته: ما الفرق بين مدينة تُخطّط لصالح مواطنيها، ومدينة تُدار لصالح صورتها؟ ومن هنا يتأسس السؤال المركزي الذي يُقلق الكتاب من أوله إلى آخره: من يحكم الفضاء فعلاً؟ هل هو المجلس البلدي أم وكالات العلامات التجارية؟ وماذا يعني أن تُدار مدينة كحملة إعلانية، وأن يتحوّل المواطن فيها إلى "عميل" داخل سردية جاهزة لا يُسأل عن صياغتها؟

لن تجد في هذا الكتاب بحثاً عن اللحظة المؤسّسة بالمعنى العاطفي أو الاحتفالي. عزرياهو يعود إلى العام 1910،

إلى لحظة التسمية، لا لأنها بداية رومانسية، بل لأنها حدث بنوي غير طبيعة المكان من الجذور. حين أطلق اسم "تل أبيب" على ما كان حيناً على تخوم يافا، لم تتغير الأبنية ولا الشوارع، ما تغير هو الخطاب الذي يحمله المكان عن نفسه، وبالتالي ما يُطالب به من شرعية ومستقبل. "تل" تعني أثراً وركاماً وأركيولوجيا، و"أبيب" تعني ربيعاً وتجديداً وبعثاً. والتركيب بينهما ليس شعراً عفويًا، بل نموذج مكثف لآلية صهيونية متكررة: صناعة ماضٍ قابل للتمكُّن، وتقديم الحاضر بوصفه ولادةً ثانية لا قطيعةً مع ما سبق. الأسلاف يُستحضرون لا كتاريخ حقيقي، بل كرصيد رمزي يُضفي على المشروع عمقاً لا يمتلكه.

ولعل الأهم هو أن هذه "الأركيولوجيا اللفظية" لا تستعيد تاريخ المكان الفعلي، بل تستبدله بتاريخ متخيَّل قابل للإدراج في سردية السيادة. المكان الحقيقي يافا، بتاريخها المديد وسكانها الفلسطينيين وأسواقها ومينائها الذي يمتدُّ عبر قرون، يتحوَّل إلى مجرد خلفية تُكرِّس القطيعة ولا تستدعيها. والعنوان ذاته، المستعار من رواية تيودور هرتزل **الأرض القديمة الجديدة** (1902)، ليس اختياراً بريئاً، بل صياغة فلسفية لأيدولوجيا قادرة على التوفيق بين المتناقضات: حداثة تدَّي لها جذوراً، وجذور تُخترع لتبرير حداثة بلا تاريخ محلي فعلي.

يتبَّع الكتاب المسار الإداري والقانوني الذي نقل "تل أبيب" من هامش يافا إلى كيان شبه سيادي، مع تركيز واضح على لحظتين مفصليتين: الحكم الذاتي في العام 1921، ثم تأسيس البلدية الكاملة في العام 1934. شرطة بلدية، شعار، خرائط وحدود، وسردية هجرة ترى في المدينة نقطة دخول لا إلى "المجتمع" فقط، بل إلى الزمن السياسي الجديد بأسره. والفكرة التي يقترحها هذا التتبُّع دقيقة ومهمة: الدولة لا تُبنى دفعةً واحدة في العام 1948، بل تُجرَّب حضرياً، قبل ذلك بعقود، عبر جزيرة قانونية تستفيد من وسيط استعماري هو الانتداب البريطاني، لتكريس الفصل التدريجي عن مدينة فلسطينية قائمة وحيَّة.

وحين يصل الكتاب إلى النكبة وما تلاها، يبلغ ذروته النقدية. الاسم النهائي "تل أبيب-يافا" ليس ترتيباً لغوياً محايداً، بل ترتيب هرمي للتاريخ. اقتراح "يافا-تل أبيب" كان يعني ولو بالحدِّ الأدنى الاعتراف بسابقة مدينة أقدم وأعمق جذوراً، واعتماد العكس يكرِّس أن يافا ستبقى مضافةً تابعة، لا أصلاً مؤسساً ولا شريكاً متساوياً. ما يحتاجه التفكيك أكثر هنا هو إبراز العلاقة بين الاسم والخراب الفعلي: بعد العام 1948، لم تُمحَّ يافا سردياً فحسب، بل أُعيد تشكيلها ديموغرافياً ومادياً، وطُرد سكانها وهُدمت أحيائها وأُعيدت تسمية شوارعها. والتسمية المرَّكبة، في ضوء ذلك، لا تُقرأ كمجرد إجراء بيروقراطي، بل كغطاء بلاغي لعملية أعمق وأشدَّ وطأة: تحويل مدينة فلسطينية إلى "حي" داخل سردية حداثة يهودية، حيث تتكلم الشوارع والخرائط بلغة المنصر، ثم يُطلب من الجميع أن يتعامل مع ذلك كأمر طبيعي لا يحتاج إلى تفسير.

يمنح الكتاب جزءاً وافراً من صفحاته لتحليل ظاهرة "الفقاعة"، وهي الاستعارة الأكثر تداولاً في وصف "تل أبيب" الراهنة: مدينة تعيش داخل حصن نفسي من الاستمرارية، تُبقي الحياة اليومية دافئةً ومضاءةً بينما يشتعل كل شيء حولها. ولعل ما يُميِّز قراءة عزريها هو هنا أنه لا يقف عند إدانة هذه الاستمرارية أخلاقياً ولا عند مديحها

بوصفها مرونة إنسانية، بل يُحاول فهمها بنويًا: الفقاعة ليست موقفًا شخصيًا يتخذه الأفراد بوعي أو بلا وعي، بل هي تنظيم مقصود للعاطفة السياسية على مستوى المدينة كلها وعبر أجيال متعاقبة.

حين يصبح العنف "بعيداً" بما يكفي كي يُرى ولا يُعاش، تتحوّل الرؤية إلى تعويض أخلاقي كافٍ. أعرف أن هناك حرباً، أتابع الأخبار، أحياناً أتضامن على وسائل التواصل، لكنني أتابع حياتي أيضاً. وهذا بالضبط ما يسميه الكتاب "غشاء" الفقاعة: شفافية تسمح بالاطّلاع دون التورط، وبالمعرفة دون المسؤولية. "تل أبيب" تُنتج نموذجاً للمواطنة يقوم على تعليق السياسة داخل الاستهلاك: شاطئ، ومقهى، وحياء ليلية لا تنكر الحرب، لكنها تحاصر داخل إطار يمكن احتماله واستيعابه دون أن يُخلل بإيقاع المدينة.

تبلغ هذه الفكرة أقوى تجلياتها حين يستحضر الكتاب حرب لبنان الثانية بوصفها لحظة انكشاف حقيقية: يصبح خطاب الفقاعة موضع نزاع علني، ويصير "الطبيعي" استفزازاً ومثار جدل. لكن ما يثير السؤال الأعمق هو: هل الفقاعة مجرد موقف أخلاقي قابل للنقد والتغيير، أم أنها شرط مادي لإدارة دولة استعمارية-عسكرية لا يمكنها الاستمرار دون مركز اقتصادي مستقرّ نفسياً؟ ربما لا تكون "تل أبيب" "هاربة" من الدولة بقدر ما تؤدّي وظيفة بنوية لا غنى عنها، وهي: إنتاج مركز قادر على الاستمرار اقتصادياً ورمزياً مهما اشتعلت الهوامش. حينها لا تصبح الفقاعة انحرافاً عن الوطنية، بل شكلاً متأخراً ومُعقّداً منها: وطنٌ يُدار عبر توزيع الحياة والموت على الخريطة بدقة مدروسة.

وحين يتناول الكتاب احتجاجات العام 2011، يُضيف طبقةً ضرورية لا تُقرأ كملحق جانبي. الفقاعة ليست متجانسة من الداخل، وتُنتج السوق داخلها أشكالاً جديدة من الإقصاء لا تقلّ قسوةً عن الإقصاء الخارجي، بل ربما تزيد لأنها تجري تحت لافتة "الحرية". "العالمية" التي يفاخر بها الخطاب "التل أبيبي" تقوم على اقتصاد عقاري يُسوّق الهوية ويُعيد توزيعها وفق القدرة الشرائية. السكن، والإيجار، واللغة، ونمط الاستهلاك، والقدرة على الظهور في المشهد الثقافي... كلها تُشكّل بوابات دخول وخروج في اقتصاد المدينة الرمزي. فالحديث عن "مدينة ليبرالية" يحتاج إلى مساءلة جذرية: الليبرالية هنا ليست فقط قيماً ومواقف تُعلن في المهرجانات، بل نمط حكم حضري يفصل رأس المال ويُبعد من لا يستطيع الدفع دون أن يُسمّي ذلك إقصاءً.

في ما يمكن اعتباره المحور الأكثر نضجاً وأصالةً في الكتاب، يُقدّم عزريها هو أطروحةً تُزعزع من أساسها السردية المريحة عن "تل أبيب" "العلمانية بطبيعتها": "تل أبيب" لم تُولد علمانية، العلمانية صُنعت عبر صراعات طويلة على المجال العام، وما بات يبدو طبيعياً ومفروغاً منه اليوم لم يكن كذلك أبداً، ولم يترسّخ دون مواجهات متكررة وكلفة اجتماعية وسياسية.

"حروب السبت" تُقرأ هنا كمختبر لتشكيل "العادي": متى يُفتح المقهى؟ ما معنى الفضاء العام؟ من يعرّف

الراحة والقداسة ويملك صلاحية إلزام الآخرين بتعريفه؟ ما يبدو صراعاً على سينما أو متجر هو، في العمق، صراع على تعريف المجتمع وتحديد من يملك صلاحية رسم حدوده وإدارة وقته الجماعي. لكن قيمة هذه الأطروحة تتجاوز تاريخ العلمانية ذاتها، إنها تكشف كيف تعمل الهوية بوصفها أثراً للصراع لا كجوهر مُعطى سلفاً ومحمي من المراجعة.

تل أبيب تبني ذاتها دائماً عبر التمييز: ضدّ "التدين"، وضدّ "القدس"، وضدّ "الريف"، وضدّ "الشرق" حين تُستدعي العالمية بوصفها مرادفاً للغرب ومسافةً ثقافية عن المحيط الجغرافي. وهنا تظهر حدود سياسية تستحقُّ التأمل الصادق: العلمانية "التل أبيبية" ليست بالضرورة تحرراً من السلطة، بل إعادة توزيع لها في اتجاهات أخرى. فهي تُقضي الدين من المجال العام باسم الحرية، لكنها تُقضي الفلسطيني من المجال ذاته باسم الحداثة والمعيّار الحضاري. أي أن "التحرر" يعمل بشكل انتقائي ومُحدّد سلفاً: يفتح باباً في صخب ويُحكم إغلاق أبواب أخرى في صمت.

حين يُصوّر الكتاب "تل أبيب" كـ"مدينة عالمية"، فهو لا يتناول العالمية بوصفها قيمةً حضريّة مُكتسبة عبر الانفتاح والتبادل، بل خطاباً دفاعياً وهجومياً في آنٍ واحد: دفاع عن الذات في مواجهة "إسرائيل" القومية-الدينية التي تُضيق عليها، وهجوم لإثبات تفوّق ثقافي يربط المدينة بنيويورك ولندن وبرلين أكثر مما يربطها بجوارها القريب، العربي والفلسطيني المُجاور جغرافياً والمنفصل رمزياً. هذا التفكيك يكشف وظيفة العالمية بوصفها إنتاجاً للهوية عبر المسافة المصطنعة: كلما اتسعت المسافة التخيلية عن المكان، أمكن تسويق السيطرة عليه بصورة أكثر يسراً وبدرية أكثر قبولاً. الكونية، هنا، ليست انفتاحاً بريئاً ولا إنجازاً ثقافياً صرفاً، إنها إستراتيجية لإعادة تعريف الانتماء، انتماء إلى "العالم" الذي لا يسأل عن المحيط، بدل الانتماء إلى جوار يفصح العنف المؤسّس ويُذكر به يومياً.

وثمة سؤال يحتاج الكتاب أن يواجهه بصورة أكثر صرامة وأقل تحفظاً: العالمية ليست مجرد خيار ثقافي تتبناه نخبة حضرية تتطلّع إلى الغرب، بل بنية داخل اقتصاد عالمي غير متكافئ تخدم أطرافاً بعينها. "تل أبيب" لا تدخل "العالم" من موقع محايد، بل من موقع دولة تمارس سياسات استعمارية وتستفيد من شبكات رأس المال والتكنولوجيا المُعوّمة التي لا تسأل عن مصادر الاستقرار. حين تُقدّم المدينة كـ"منارة" للقيم الليبرالية وحاضنة للإبداع والتنوّع، يصبح السؤال الذي لا مفرّ منه: من يُستثنى من هذه القيم داخل مجالها؟ وكيف تُستخدم صورة التسامح غطاءً لعلاقة المدينة بجهاز الدولة الأمني ومنظومة السيطرة المتشعبة؟ الكتاب يلّمح إلى هذا التناقض دون أن يقفز إليه مباشرة، لكن القراءة النقدية تُصرّ على أن ليبرالية لا تواجه استعمارها تتحوّل، شاءت أم أبت، إلى تزيين أخلاقي لهيمنة يجعلها أكثر قبولاً لا أقل.

لو جُمعت خيوط الكتاب في صورة واحدة متماسكة، لظهرت "تل أبيب" كصيغة مركّبة من السلطة المتداخلة: سلطة الاسم، وسلطة القانون، وسلطة الصورة، وسلطة العادي المتكرّر الذي لا يحتاج إلى إعلان عن نفسه لأنه يعمل بصمت. المكان ليس خلفية للأحداث بل مادة تُعاد صياغتها لتصبح برهاناً: برهان على حداثة الدولة وعلى

"طبيعية" مركزها وعلى إمكان الانتماء إلى الغرب دون حسابٍ للشرق القريب والمُهمين عليه. والهوية، بدورها، لا تُفهم كهوية سكان فقط، بل كهوية دولة تُختزل في مدينة وتحتاجها مرآة تعكس ما تريد أن تراه في نفسها. لكن المرأة لا تعكس فحسب، إنها تحجب وتُشوّه وتختار.

وهنا تبرز حدود الكتاب المعرفية والسياسية في آنٍ واحد. عزرياهو قوي حين يفكك الخطابات ويقرأ الأسماء والخرائط والشعارات بعين تلتقط ما يقبع تحت السطح. لكنه يُخاطر أحياناً بما يمكن تسميته مركزية "تل أبيب" التحليلية: تحويل المدينة إلى مفتاح تفسيري شامل لـ"إسرائيل" كلّها، بما قد يُهمّش أشكالاً أخرى من السلطة والمقاومة خارج هذا المركز وبعيداً عن أضوائه، ويجعل المشهد بأسره يبدو وكأنه صراع بين "تل أبيب" والقدس، بدل أن يُرى بوصفه منظومة استعمارية-عسكرية تتجاوز هذه الثنائية المريحة وتسكن في كل الفضاءات دون استئذان.

ثمّة أيضاً ما يغيب عن الكتاب بما يكفي لأن يُلاحظ ويُساءل عنه: الفلسطيني الذي يتحوّل حضوره إلى أثر أو غياب داخل هذه الجغرافيا الرمزية لا يظهر بالقدر الكافي فاعلاً وشاهداً على تاريخه، بل يبقى في أغلب الأحيان موضوعاً لسردية الآخر وأداة في خطابه. ويافا كذاكرة مغمومة تستحقُّ أكثر من إشارات عابرة تؤدّي وظيفتها ثم تُطوى: هل تُفكك المدينة علاقتها البنيوية بيافا فعلاً وتُحاسبها، أم يُكتفى بإحالتها كخلفية مفيدة تُؤكّد القطيعة وتمضي دون أن تُواجه؟ وأين تقع أدوات العنف المادي، لا الرمزي وحده، في حفظ هذا "الانفتاح" الذي تتفاخر به المدينة وتُسوّفه للعالم؟ اختزال السلطة في التسويق والخطاب قد ينجح في تشريح قشرة المشروع وجعلها مرئية، لكنه قد يلين أمام بنيتها الأعمق والأصلب: دولة تُنتج فضاءها عبر قوانين وإكراهات وتاريخ من الإقصاء المادي لا يُستبدل بلغة السوق، بل يُعاد تدويره داخلها ويكتسب من خلالها مظهراً أكثر قبولاً.

مع ذلك كلّهُ وعلى الرغم منه، تظلُّ مساهمة عزرياهو الأساسية راسخة وجديرة بالقراءة والنقاش. "تل أبيب" ليست مدينة "تعيش خارج السياسة" كما تُحبَّذ أن تُصوّر نفسها، بل مدينة تُنتج السياسة عبر ادّعاء الخروج منها والتعالى عليها. الفقاعة ليست فراراً من الواقع، بل تقنية حكم ناجعة. والعالمية ليست انفتاحاً على الآخر، بل إعادة صوغ للمسافة منه. والعلمانية ليست جوهرًا موروثًا يُورث كالجينات، بل تاريخ صراع مُستمرّ يُستخدم اليوم لإقصاء انتقائي يختار ضحاياه بعناية ويُبرّر ذلك بلغة التقدّم.

في المسافة بين الزجاج والندبة، وبين الاحتفال والإنكار، وبين الواجهة المُعلنة والجرح المُسكّت، تتبدّى "تل أبيب" لا كمدينة "لا تنام" كما يقول شعارها، بل كمدينة لا تستطيع أن تحلم إلا بشرط أن تُبقي أسئلة السلطة والمكان والهوية مؤجلةً إلى أجل غير مسمّى. وحين تُدار المدينة كعلامة تجارية وتُباع كفكرة جاهزة، يزداد التوتر بين ما يُعرض وما يُعاش، وبين ما يتضخّم في المركز وما يُترك للهوامش لتحمله وحدها دون أن يُلتفت إليها. وفي هذا التوتر بالتحديد، لا في حسم الأطروحة أو إغلاق السؤال أو تقديم إجابة مُريحة، تكمن قيمة الكتاب الحقيقية وأثره الذي لا يُمحي بسهولة.

غير أنَّ ثَمَّة إشكالية منهجية جوهرية تتراكم على امتداد الكتاب ولا يُعالجها بما يكفي: عزرياهو يقرأ المدينة في معظم الأحيان من أعلى، من موقع المحلّل الذي يُفكّك الخطابات ويُشرّح الأسماء ويتتبع القرارات الإدارية، لكنه نادراً ما ينزل إلى مستوى الحياة التي تجري تحت هذه الخطابات وفي مواجهتها. والنتيجة أن الفاعلية الإنسانية تكاد تغيب: السكان لا يبدوون كأناس يتفاوضون مع المدينة ويقاومون بعض شروطها ويخترعون هوامش للعيش خارج ما تُملّي عليهم السردية الرسمية، بل يبدوون كأدوات سلبية تتلقّى الخطاب وتُعيد إنتاجه. هذا الغياب ليس هفوةً عابرة، بل يمَسُّ جوهر الأطروحة ذاتها: إذا كانت المدينة جهازاً لإنتاج الخضوع، فإن إغفال أشكال التشقّق والمقاومة والتناقض الداخلي يجعل هذا الجهاز أكثر انسجاماً وأشدّ إحكاماً مما هو عليه في الواقع. المدينة التي يرسمها عزرياهو ناجحة فوق طاقتها، متماسكة إلى حدٍّ يُثير الريبة. وهذا التماسك التحليلي المُفرط يُفضي إلى نتيجة مفارقة: نقد يعكس، دون أن يقصد، شيئاً من المنطق الذي يُنتقد، إذ يُحوّل المدينة إلى نظام مغلق لا تسرّب فيه ولا خلل، ويُغفل ما يعرفه كل من عاش في مدينة كبيرة: أن السلطة لا تُحكم قبضتها أبداً، وأن الصدوع التي تُخفيها الصورة هي في الغالب أكثر ثراءً وأكثر دلالةً من الصورة نفسها